

الفكر الإسلامي ولغة القرآن عصرٌ فاتٍ في نطْعَم بِاللّغَةِ الْقَوْمِيَّةِ

بقلم الأستاذ مصطفى الزرقا

خبير الموسوعة الفقهية الكويتية
والاستاذ بكلية الشريعة (دمشق)

القرآن ، وبعض سور القصار مع فاتحة الكتاب لاداء صلواته المفروضة . وحده الاعلى ان يستعرب الشعب كله استمراها تاما ، كثيرون شمال افريقيا وال العراق بعد الفتح ، حيث اصبحوا شعوبا عربية لا يمكن التمييز فيما بين العرب الاصليين الوفدين بعد الفتح وبين سكان البلاد الاصليين .

ويبين هذين الحدين (الادنى والاعلى) لانتشار اللغة العربية مع انتشار الاسلام مراتب لا تحصى درجاتها في مقدار ما تأخذ الشعوب التي تدخل بالاسلام من اللغة العربية . وقد يتعلم الشخص المسلم قراءة القرآن كله بالنص العربي ، ويحفظ مقاطع كثيرة منه غبيا . وقد يتعلم العربية وقواعدها في جيدتها كتابة اكثرا مما يجيدها قراءة وحديثا . وقد يتخصص بعلوم الشرعية والفقه فيجيد العربية كتابة ونطقا الى درجة الخطابة فيها كابنائها الفصحاء حتى انه قد يصبح من كبار شعرائها . والامثلة على هذا في التاريخ الاسلامي كثيرة معروفة . ومن

ان نوأة الجواب على السؤال الاصلى نجدتها في زيارة للمشرق الفرنسي كود فروا دوموبين عن التلازم بين تقارب لغة اي شعب اسلامى من لغة القرآن وبين قوة اسلاميته ، حيث يقول دوموبين في الفصل الاول من كتابه «النظم الاسلامية» ما يلى:

«ونستطيع القول بشيء من المبالغة : ان نظم اي شعب اسلامى تكون اكثر اسلامية كلما اقتربت لغته من لغة القرآن . فباتخاذ هذا المبدأ نستطيع ان نضع في الصفوف الاولى من المسلمين اولئك الناطقين باللغة العربية ، وان كان منهم من تكلم العربية بعد الفتح الاسلامي ، كحالة سكان سوريا والعراق ومصر والمغرب » (1)

اننى شخصيا من القائلين بصحة هذا المبدأ الذى قرره دوموبين . وبالاستناد اليه اقول : ان التلازم قائم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية .

اما مدى هذا التلازم فانى ارى ان هذا التلازم حده الادنى هو ان يتعلم المسلم غير العربي آيات من

(1) النظم الاسلامية للمشرق دوموبين ، ترجمة الدكتور فيصل السامر والدكتور صالح الشمام ، طبعة دار النشر للجامعيين - مطبعة حداد في بيروت - ايلول 1961 .

واستتبع هذا ايضا انطلاق التجارة مع الفتح الاسلامي ، فتوافر العاملان : الدينى الذى يدعو الى اخذ اللغة العربية لعرفة اصول الدين العربية ، والعامل الاقتصادي الذى يدعو الى اخذ اللغة العربية ايضا لصلحة الاتكاب ، لأن هذه اللغة عندها اصبحت الاداة الوحيدة للتفاهم في التبادل التجارى بين الاقوام المختلفة فى البلد المفتوحة على الاقل (وما اوسع رقعتها فى الارض) لأنها لغة الدين المشتركة التى تنتشر عمليا بدافع الدين وما استتبعه من فتح وسادة وحكم ، ومن تعامل بين شعوب البلد المفتوحة على اختلاف لغاتها حين اصبحت اقطارا متعددة فى دولة واحدة لغتها الرسمية المشتركة هى العربية لغة الدين والقرآن والصلوة .

2) اما الثق الثاني من السؤال الايضاحى (لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام) فجوابى عليه : لا ، بالنفس لا بالايجاب ، لأن الاسلام رسالة تدعى الى منهاج واخلاق نظرية وعملية تقيم الحياة على افضل طريق للانسانية ، بقطع النظر عن لغة دستورها (القرآن) وعروبتها . ولكن عربية القرآن جعلت اهل اللسان ، اي المرب انفسهم ، يتذوقون فيه مذاقا من البلاغة الرفيعة لا يتذوقه سواهم .

فالاسلام دين صالح للانتشار على مقياس ونطاق عالىين بسبب الطريق القويم الحكيم الذى شقه للبشر فى الحياة ، وبسب الاسس والمبادئ والقواعد الحكيمية المعقولة التى تتلاقى مع الفطرة البشرية السليمية ، وتولف نظاما وسطا معتقدا بين طرف الانحرافات الشاذة فى الفكر او فى العمل . ولذا كان من اهم ما يلحظه راصدوه من اعدائه المستعمرين والمبشرين اليوم بالبيانات الاخرى انه ينتشر مع التجار المسلمين ، ولو من غير العرب ، (كجماعة التبليغ فى الهند ، ومعظمهم تجار يلتزمون بتبلیغ الاسلام) فى كل قطر يدخلونه ، ولو بقى الداخلون فيه على لغتهم .

فليست العربية وكونها لغة القرآن سببا لانتشار الاسلام ، بل الصحيح هو العكس : اى ان انتشار الاسلام هو السبب الاعظم لانتشار العربية . فقد قال الله تعالى فى القرآن العظيم :

الامثلة المصرية على هذه الاجادة كتابة وخطابة الاستاذ الجليل العlamة المندى الشيخ ابو الحسن على الحسنى التدوى ، والشيخ حبيب الرحمن الاعظمى وكثيرون سواهما .

وما تجب ملاحظته ان خطبة الجمعة وصلوات الجمعة في البلاد الاسلامية غير العربية ذات اسر كبير في فهم العامة كثيرا من الانفاظ العربية والخلاف سمعهم لها بما يقرأ فيها من القرآن جهرا ، وبما يرد في خطبة الجمعة من آيات قرآنية واحاديث نبوية ومواعظ عربية ولو امتزجت بشروح من خطيب الجمعة باللغة القومية المحلية .

وكذلك يقال في دروس المساجد وقصصها الدينى لما تتضمنه من استشهادات بنصوص دينية .

الاستلة الايضاحية :

1) نعم لولا الاسلام لما انتشرت العربية ، ذلك لأن اللغة ايا كانت لا يمكن ان تنتشر الا باحد عوامل اربعة : الفتح القومى ، والسهولة (نطقها وقواعد) ، والتجارة الخارجية ، والدين .

ا - فالعرب قبل الاسلام لم يكن يمكن ان يكونوا قوة فاتحة في العالم تسط سيادتها ولغتها كما هو معلوم من امرهم في الجاهلية .

ب - واللغة العربية على سمعها ودقها وخصائصها الفريدة ومزاياها الجمة ليست سهلة النطق ولا القواعد على غير اهلها ، كما هو معلوم ايضا .

ج - والعرب قبل الفتح الاسلامي لم يكونوا ذوى تجارة خارجية عالية ، ولا يمكن ان يكونوا كذلك في حياتهم القبلية المعروفة ، ولاسيما انهم ليسوا امة بحرية . فكانت تجارتهم موسمية محصورة في داخل الجزيرة العربية نفسها بين شمالها وجنوبها ، وتجارتهم الخارجية رحلة سنوية الى الشام ذهابا وايابا في فترة قصيرة ليس فيها اقامة تجارية ولا تعامل دائم . وما سوى ذلك ليس له شأن يذكر .

د - فلم يبق الا العامل الرابع ، وهو الدين السمع الذى قاد الفتح ، وبسط سيادة الاسلام في العالم بعد ان جعل من العرب البداية امة حضارية نظامية ذات رسالة عالمية ، ذات قانون داخلى وقانون دولى .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا سَمِعُوكُمْ دُعَاكُمْ لَا يُحِبِّيكُمْ »

فمن الواضح ان هذا الاحياء الذى فى الاسلام ليس منوطا بلغة نصوصه ، بل بمحتواه من نظام واسس ومناهج حياة .

ان كل ما اوضحته فى جواب هذا السؤال الاياضى الاول ينطبق على واقع بيئى الاتيمينة ، وهى سورية فى تاريخها المعروفة ممما لا حاجة الى الاطالة فى ذكره .

2) نعم من الملاحظ ان الوعي الاسلامي والوازع الدينى فى البلاد الاسلامية ، عربية وغيرها ، يقوسان ويضعان بقوة اللغة العربية وضعفها ، اعرف هذا فى تاريخ بيئى سوريا ، وفى سائر البلاد الاسلامية ذلك لأن انتشار الاسلام وتاثيره فى النفوس وان لم يتوقف على العربية ، لا شك ان انتشارها وازدهارها معه يزيد تأثيرا ويجعل الشعوب احسن فهمًا له واتصالا مباشرًا بنصوصه وتدوينا لها وتاثيرها . فمن المشاهد دائمًا فى عصرنا اليوم ان صيرورة الناس ذوى ذوق رفيع فى العربية وادبها وبلغة كلامها يزيد من تاثيرهم بالقرآن وما فيه من روايات العطاء ، وبالسنة وما فيها من جوامع الكلم . بل ان كثيرا من المسيحيين من ادباء العربية وكتابها البلغاء يتاثرون بسماع القرآن فى الاذاعات تأثرا كبيرا ومنهم من يستظهر كثيرا من آياته حفظا وتجربى على لسانه فى كثير من المناسبات . فهذه البلاغة العربية الاخاذة تضيف تأثيرا اضافيا لمضمون الاسلام ومحتواه .

على ان هذا الارتباط بين قوة العربية والوعي الاسلامي هو اشد واقوى بين اهل اللسان فى البلاد العربية نفسها ، ذلك لأن هؤلاء طريق صلتهم بالاسلام هي اللغة العربية ، لأنها لقتهم ، فمما ضفت اللغة ضفت هذه الصلة . اما غير العرب فصلتهم بالاسلام عن طريق لقتهم القومية ، فلا يتاثر الوعي الاسلامي فيهم بضعف العربية كما يتاثر هذا الوعي بضعفها بين العرب انفسهم . (ومثال ذلك تركيا اليوم) حيث تبين ان الوعي الاسلامي فى الشعب التركى المسلم هو في صعود رغم ما لقيت العربية في بلادهم من محاربة في العهد الاتاتوركى المعروف) .

لكن انتشار العربية في شعب غير عربى لا شك انه يعطى هذا الشعب تدوينا جديدا اضافيا يزيد في نفوس ابناءه الحس الاسلامي ، لأنه يصلهم بمنابع الاسلام مباشرة .

3) ان اللهجات العامية المنحرفة عن الفصحى فى كل لغة (ومنها العربية) تهدىها الثقافة ورقى المستوى العلمى فى البلاد ، ويتقربها ذلك من الفصحى الذى هي لغة العلم والكتابة ، ويعدل كثيرا من انحراف اللهجات العامية ، ويستبعد فى المحاذفات العادمة كثيرا من الانفاظ العامية التي تتجهها اسماع المثقفين ، وليس لها نسب فى اصل اللغة ويفنى عنها غيرها من الفصحى الإصيل . حتى ان من المشهود انه برقي الثقافة العامة وانتشارها يضعف الفارق الكبير فى اللهجات والانفاظ العامية بين بلد وآخر فى القوم الواحد ، وتهدى لغة المحاذفات وتقرب من الفصحى بكثرة ما يدخل فيها بين المثقفين فى احاديثهم العادمة من اللغو الفصحى . هذا امر ملحوظ بل ملموس ، ونشاهده فى بيئتنا وغيرها .

وبناء على هذه الملاحظة يبدو بديهيًا ان انتشار لغة القرآن فى الاقاليم الاسلامية غير العربية او الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية او الاسيوية يؤثر حتما فى لغاتها القومية ، بما يحمل القرآن اليهم من معان جديدة لا يعبر عنها تعبيرا دقيقا الا باسمائهم العربية ، مثل (صلاة ، صوم ، حج ، زكاة) الخ ... ومن مفاهيم اسلامية اوجدهتها الشريعة والثقافة الاسلامية ، مثل (فقه ، حلال ، حرام ، واجب ، سنة ، حدیث ، طهارة ، نجاست) الخ ... وهذا التأثير يقع من حيث ان الفكر الاسلامي ولغة القرآن هما عنصر ثقافي ولغوى جديد تطعم به اللغة الاقليمية .

هذا بالنسبة الى اللغات الاقليمية فى البلاد الاسلامية غير العربية او جالياتها فى بلاد الغرب .

اما بالنسبة الى اختلاف اللهجات فى البلدان او الاقاليم المختلفة لابناء لغة واحدة قومية ، فان هذا التأثير يضعف جدا فيما ارى ، لأن الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن انما ينصب تأثيره على اصل اللغة القومية بما يوجد فيها من الفاظ وتعابير واسماء عربية لمان ومفاهيم اسلامية ، كما اوضحته آننا ، اما اختلاف اللهجات فلا شأن للفكر الاسلامي في ازالته ولكن قد يخففه فقط ، فان لغة القرآن لم تمح فوارق اللهجات بين ابناء البلاد العربية نفسها، بل بقى اختلاف اللهجات العربية قائما بين مصر وسوريا والعراق وتونس ، والمغرب الخ ...

والحظ ان تأثير اللهجة الاقليمية عند سواي اكثر .
5) يجب ان تحتل العربية في بلادى مكانة الصدارة . واقتصر بذلك انه لا يجوز ان يكون هناك احد في بلادى لا يعرف العربية ، واتما يعرف بدلًا منها لغة اجنبية .

فالواجب ان تكون اللغة العربية وهي لغة الام في بلادى هي اللغة الاساسية ، وكل لغة اخرى اجنبية تكون لغة مساعدة بحسب حاجة الثقافة العامة والاخفاء العلمي ، والاطلاع على المصادر الاجنبية للمعرفة .

4) انتى شخصيا في كلامي العادى وحدبى باللهجة العامية احرض على ان انتقي افضل اللهجات الموجودة في المدن السورية ، واقربها الى اللهجة الفصحى ، وان اجتنب ما ينبو عنه ذوقى ، او اللهجة الفصحى من اللهجات والالفاظ العامية في بلدى . لذلك اشعر ان اللهجة الاقليمية العامية في بلدى (مدينة حلب من سورية) لا يوجد منها في تعبيري العربية المحلية (اي كلامي العادى الصامى بغير الفصحى) سوى خمرين في المائة او اقل . والخمسون الاخرى تقرب كثيرا فيها لهجتى العامية من الفصحى .

